الترجمة وخبراتُ الجيل Z وجيل الألفية:

سياسات اليوم وإطلالةٌ على المستقبل

فلاح حكمت اسحق

كان من الحظوظ الطيّبة أن أستمع مساء البارحة (25 تمّوز 2025)، وعلى مدى زمني يقارب الساعة والنصف، وفي مضمار المنتدى العالمي للغة العربية الذي ترأسه الأستاذة القديرة باهرة عبد اللطيف، إلى محاضرة مميزة واستثنائية عنوانها (**تعليم الترجمة لجيل Z: خبرة جيل الألفية**). العنوان - كما لايخفى- يمتلك جاذبية فكرية وعملية واضحة لن يتغافلها كلّ مهتمّ أو مهجوس بالموضوعات الستراتيجية التي تنبثق عن الحراك التفاعلي القائم بين تقنيات عصرنا ومستجداته العلمية التي تتسارع كل يوم من جانب، والتغيرات البنيوية الحاصلة في طبيعة تشكيل البارادیغمات النسقية الحاكمة للتفكير في الأجيال الناشئة بعد ثورة التقنيات الرقمية وحلول عصر الذكاء الإصطناعي الذي بات يبشّرنا بقرب مَقْدَم نسخته المنتظرة من الذكاء العام

والفائق. كانت الأستاذة المحاضرة الدكتورة هبة المصري، أستاذة الترجمة في إحدى الجامعات المصرية - والتي اختارت توصيف نفسها بأنّها شابة من مخرجات جيل الألفية الذي صار من المواضعات الثقافية السائدة تشخيصُهُ بالفئة العمرية الممتدة من منتصف تسعينيات القرن العشرين حتى عام 2010- دقيقة ومرتّبة في عرض مادتها بكيفية متوازنة لا تعمل على كبح الدسامة التاريخية والنظرية للمادة المبحوثة استجلاباً للمتابعة المنتظرة من جانب المستمعين. مَنْ له رغبة حقيقية مقترنة بشغف لحوح في المتابعة سيعرف أنّ دسامة المحاضرة تستحقّ الإصغاء المكثّف والتمرين الذهني التفاعلي اللحظي؛ أما من ليس له تلك الرغبة وذلك الشغف فلن تستهويه المتابعة حتى لو جعلتَ له المحاضرة أقرب لقالب شيكولاتة. هذه المقايسة تصحُّ مع الكتب المؤلّفة أو المقالات أيضاً. ثمّة مستوى مفاهيمي لا ينبغي الهبوط إلى ما دونه تحت مسوّغات الجذب الشعبي وتوسّل إنتباهة الآخرين. المضامير الفكرية الجادة ليست (سيركاً) للتسلية العابرة أو (طلبات المستمعين)، والعلم الحقيقي لا توجد له طريق ملكية معبّدة باليسر والتفريط في حجم التبسّط في تحصيل المعرفة.

نشداناً لضبط الملاحظات والتعليقات في حقول مشخّصة سأعمدُ إلى ترتيبها وتبويبها بدلاً من تركها تضيع في ركام واسع من الملاحظات العامة:

1. واحدةٌ من أهمّ الشواخص الدالّة في المحاضرة هو تقديمها لنمط وسياسة تمرير الخبرة بين جيليْن تأثّرا بالثقافة الرقمية وإن كان الجيل Z أكثر تأثراً وتماساً بمنصّات التواصل الإجتماعي. لا بد هنا أن نكون واضحين: إنّها أخدوعة كبرى أن نمضي في ترسيخ القناعة المسبّقة بأنّ الأجيال اللاحقة لجيل الألفية أكثر تحصلاً للمعلومات وأقلّ خبرة من الأجيال السابقة. ماذا نعني بالمفهوم العملياتي الدقيق للخبرة؟ هذا سؤال فلسفي عظيم الأهمية. نحن نفترض أنّ الخبرة التلقائية تأتي مع العمر وعيش سنوات إضافية، وهنا مكمنُ الأخدوعة. الإنفجار المعلوماتي يمكن أن يسرّع في إكتساب الخبرات النوعية ممّا لم يكن متاحاً للأجيال السابقة. ربما يحصل نوع من التداخل العفوي بين الحكمة والخبرة. الحكمة مقياس يصعب التعامل معه وهو متفلّت رجراج ويتّسمُ بقدر كبير من الذاتوية واللاموضوعية؛ أما الخبرة فثمّة مؤشرات قياس لها. كثيرون من أفراد الجيل Z باتوا أكثر قدرة وعلماً ومعرفة وإحاطة بتفاصيل دقيقة إزاء موضوعات المهنة والدراسة والتعامل مع المال والسياسات العالمية من أفراد الأجيال السابقة لهم. أقرأ أحياناً على مواقع الأسئلة العالمية (مثل موقع Quora) شباباً يافعين -لا يتجاوزون الخامسة عشرة- يتساءلون عن النمط الأفضل لدراستهم: هل يدرسون مثلاً الهندسة الكهربائية حتى الحصول على PH.D، أم أنّ الأفضل هو أن يحصلوا على Double Major في الرياضيات وعلم الحاسوب، أو الفيزياء والهندسة

البرامحية، ولو شئتُ لأوردتُ أسئلة أكثر تخصصاً وتنمّ عن عقل تنقيبي وقدرة معرفية متفوقة.

2. فيما يخصّ الترجمة كمهنة فمن المؤكّد أن تشهد إعادة تكييف كمرحلة تمهيدية قبل أن تطغى عليها تطبيقات الذكاء الإصطناعي في الحقل الترجمي، وهذا أمرٌ لا ينبغي وليس بذي جدوى أن نذرف الدموع عليه. هذا أمر سبق أن حصل مع كلّ ثورة صناعية جديدة. هل كان ينفع أن نتطلّع في عيون الأحصنة الجميلة ونحن نشهد أمامنا ثورة محرّك الإحتراق الداخلي (السيّارة)؟ هذا الحنين النوستالجي لا ينفع فضلاً عن أنّه عظيم الكلفة في الجانب المادي ويفتقد إلى المشاعية الديمقراطية الحقيقية التي تكسر حدّة الفروقات التراتبية الطبقية. تقنية الطباعة وإشاعة الكتب والقراءة أشاعت القيم التنويرية أكثر كثيراً ممّا فعلت النصوص الدينية. ثمّة أيضاً ما يتوجّبُ الإنتباه إليه: الذكاء الإصطناعي أكبر من ثورة صناعية جديدة خامسة أو سادسة- إنّه عصر تنوير جديد بكلّ المعنى الدلالي لمفردة التنوير لأنّه لا يختصُّ بالعمل في المستوى التقني بل يتجاوزه إلى مستوى المساءلة العقلية والمفاهيمية لطبيعة الوعي الذي يظلُّ الحقل البحثي الستراتيجي الأهم في عصرنا.

3. كانت الأستاذة المحاضرة واضحة ودقيقة تماماً في تأكيدها أنّ الترجمات المدعمة بالذكاء الإصطناعي شهدت تطويراً بنيوياً ونوعياً في السنتين الماضيتيْن إلى حدّ لم يعد تصحّ معه سياسة التغافل أو تقليل الشأن تحت مزاعم متعدّدة. أقول من واقع تماس تجريبي مع الفعالية الترجمية أنّ معظم النصوص والكتب (لا أحب الأرقام والنسب المئوية. هل أقول 99.9%. لا بأس) يتعامل معها الذكاء الإصطناعي الترجمي بكفاءة وبخاصة النصوص التقنية التي تخلو من المنعطفات الدلالية أو التضمينات الإستعارية المعهودة في التجارب الشعرية. ليست كل الدنيا نصوصاً شكسبيرية أو أشعار ميلتون، وليس من المروءة إمتحانُ الذكاء الإصطناعي بنص شكسبيري أو شعري ملتف وكثيف في حمولته الدلالية و/أو الإستعارية للتدليل على خطله وانعدام (أو قلّة) كفاءته. الدنيا ليست كلها شعراً أو نصوصاً شكسبيرية خالصة كما قلت بل هي أيضاً فيزياء ورياضيات وكيمياء واقتصاد وسياسة وسوسيولوجيا وأنثروبولوجيا،،، وهذه كلها تنفع معها آليات الترجمة المدعمة بالذكاء الإصطناعي.

4. كنت حتى قبل سنتين متشدّداً غاية التشدّد في توظيف تطبيقات الترجمة الآلية المدعمة بالذكاء الإصطناعي؛ لكنّي اليوم أراها سياسة غير حكيمة وبخاصة أنّ بعض دور النشر العالمية (مثلما أشارت المحاضرة إلى دار نشر

Taylor & Francis) أعلنت بداية إعتماديتها على هذه السياسة الترجمية ابتغاء لتقليل الأكلاف والوقت. ليس في هذا ضيرٌ أو مثلبة. فيما يخصُّ الجهد الترجمي الفردي يتوجّبُ إعتماد مقاربة تأسيسية لا تقبل بترجمة نص ما لم يقرأه المترجم قراءة دقيقة ويلمُّ بكل تفاصيله، ثمّ يعمد بعد ترجمته الآلية إلى إعتماد سياسة تحريرية يضع فيها بصمته الشخصية. بغير هذه المقاربة لن يكون العمل أكثر من سرقة طفيلية أساءت إلى المقاصد النبيلة لهذه التقنية. لا مفرّ من هذه الحقيقة: أظنّ أنّ المترجم سيعمل في فترة إنتقالية -أمدها خمس سنوات من اليوم- محرّراً للنصوص المترجمة آلياً، وبعدها عليه أن ينسحب بهدوء من المشهد ويعيد تكييف نفسه وظيفياً مثلما سيحصل مع وظائف كثيرة أخرى. لا حزنٌ على المترجمين ولا هم يكتئبون. سينغلق باب ويُفتَحُ ألف باب وباب. هذا بعض طبيعة الثورات التقنية السابقة والقادمة.

5. ما الذي سيبقى في دراسة الترجمة؟ هل سيبقى شيء أصلاً؟ لا أعرف، وليس بيننا من يستطيع التكهّن ببعض تضاريس الخارطة الترجمية القادمة. أظنّ أنّ إعادة التكيّف والتكييف الثقافي ستكون العنوان الطاغي لمجمل الحراك الفاعل في الساحة الثقافية العالمية. لن تكون هناك مهنة تمتد على المدى الزمني لعمر الفرد. لا بدّ من إعادة ترتيب وضبط الخبرات بفعل

التسارع التقني الهائل والذي لن تستطيع وسائلنا الفردية التعامل معه من غير معونة مباشرة من الذكاء الإصطناعي. هناك محدوديات فيزيائية تحكم المشهد، ولن تنفعنا الشطارة البشرية في تجاوز هذه المحدوديات. علينا أن نجيد التعامل معها وتوظيفها لخدمتنا. هذا ما يتوجّب علينا -وبمستطاعنا- فعلُهُ.

6. هناك نغمة لا يكف عن تكرارها المسكونون بمتبنّياتهم الفكرية الراسخة إمّا لدوافع لاهوتية أو دفاعاً عن وظائفهم وما تجودُ بها عليهم. هذه النغمة تتجوهر في أنّ الذكاء الإصطناعي لن يكون يوماً بديلاً عن القدرات البشرية، وأنّه ليس سوى حصيلة جمعناها من البيانات الكبيرة بوسائل إحصائية. تبدو النبرة اليقينية في هذه العبارة غريبة وغير مؤتلفة مع التغيرات الثورية التي بتنا نشهدها. ببساطة تتأسّسُ هذه القناعات وأضرابها على سوء فهم مفاهيمي لطبيعة الذكاء الإصطناعي: حتى بداية القرن الحادي والعشرين كانت مفاعيل الذكاء الإصطناعي تقوم على النظم الخبيرة Expert Systems؛ أما مابعد هذا المفصل التاريخي فنشأ لدينا مفهوم التعلّم العميق Deep Learning والشبكات العصبية الإصطناعية Artificial Neural Networks الذي صار يحاكي الدماغ البشري في أصل إكتسابه للمعرفة مع فارق تفوّق التقنية النوعي في حجم البيانات الكبيرة والقدرة الحوسبية

الفائقة التي تتضاءل أمامها القدرة الدماغية البشرية. من العبث الخطير - فضلاً عن الخطل في الأمانة العلمية- الكتابةُ بلغة تبشيرية عن أنّ العقل البشري سيظلُّ في بعض دهاليزه عصياً على الإقتحام والمحاكاة. لماذا إذن يكتب جيفري هنتون، وهو أحد الآباء المؤسسين للشبكات العصبية الإصطناعية- عن الخطر الوجودي القادم؟

7. واحدة من أسوأ الأفاعيل التي قد نفعلها هو قراءة مصادر عن الذكاء الإصطناعي يعتمد كاتبوها لغة التهويل الفاقع (ديستوبيا حرب هرمجدّون التي لا تبقي ولا تذر) أو التبسيط المخلّ (العقل البشري سيبقى متعالياً على الآلة في محاكاة لرؤية أنّ المصنوع لا يرتقي فوق صانعه). نحن إزاء عصر جديد مع الذكاء الإصطناعي سيعاد فيه تشكيلُ عالمنا البشري ونوع العلاقات التفاعلية السائدة فيه، وأحسب أنّ الدكتورة الأستاذة هبة المصري قد دلّتنا على جانب واحد منه (الحقل الترجمي) وما يمكن أن تتطوّر إليه الأمور في السنوات القليلة القادمة.